الباب الرابع

انتشار الإسلام بين مسيحيي إفريقية

دخل الإسلام إفريقية أولا مع الجيش العربي الذي غزا مصر بقيادة عمرو بن العاص سنة ٦٤٠م (٢٠هـ) وقد ترك انسحاب الجيوش البيزنطية بعد ذلك بثلاث سنين أهالي هذه البلاد المسيحيين الكثيري العدد في أيدي الفاتحين المسلمين. ويرجع النجاح السريع الذي أحرزه غزاة العرب، قبل كل شيء، إلى ما لقوه من ترحيب الأهالي المسيحيين الذين كرهوا الحكم البيزنطي، لما عرف به من الإدارة الظالمة ولما أضمروه مرارا من علماء اللاهوت، فإن اليعاقبة الذين كانوا يكونون السواد الأعظم من السكان المسيحيين، قد عوملوا معاملة مجحفة من أتباع المذهب الأرثوذكسي التابعين للبلاط الذين ألقوا في قلوبهم بزور السخط والحنق اللذين لم ينسهما أعقابهما حتى اليوم[١].

كان بعضهم يعذب ثم يلقي بهم في اليم، وتبع كثير منهم بطريقهم إلى المنفى لينجوا من أيدي مضطهديهم، وأخفى عدد كبير منهم عقائدهم الحقيقية، وتظاهروا بقبول قرارات مجمع خلقدونية[٢]. وقد جلب الفتح الإسلامي إلى هؤلاء القبط، ذلك اللفظ الذي يطلق على المسيحيين من اليعاقبة في مصر، حياة تقوم على الحرية الدينية التي لم ينعموا بها قبل ذلك بقرن من الزمان. وقد تركهم عمرو أحرارًا على أن يدفعوا الجزية، وكفل لهم الحرية في إقامة شعائرهم الدينية، وخلصهم بذلك من هذا التدخل المستمر الذي أنوا من عبئه الثقيل في ظل الحكم الروماني. ولم يضع عمرو يده على شيء من ممتلكات الكنائس، ولم يرتكب عملا من أعمال السلب والنهب[٣]. ويظهر أن حالة القبط في الأيام الأولى من

---

(١) Amélineau, P. 3; Caetani, vol.iv.P.81.sq.

قيل إن جستنيان أمر بقتل مائتي ألف من القبط في مدينة الإسكندرية، وأن اضطهادات خلفائه قد حملت كثيرين على الالتجاء إلى الصحراء. (Wansleben: the present State of Egypt, P.11) (London, 1678)

(٢) Renaudot, P.161 سويرس ص١٠٦.

(٣) يوحنا أسقف نقيوس اليعقوبي (عاش في النصف الثاني من القرن السابع الميلادي) ص٥٨٤.

حكم المسلمين كانت معتدلة نوعا ما. وليس هنالك شاهد من الشواهد يدل على أن ارتدادهم عن دينهم القديم ودخولهم في الإسلام على نطاق واسع كان راجعا إلى اضطهاد أو ضغط يقوم على عدم التسامح من جانب حكامهم الحديثيين[١]. بل لقد تحول كثير من هؤلاء القبط إلى الإسلام قبل أن يتم الفتح، حين كانت الإسكندرية حاضرة مصر وقتئذ لا تزال تقاوم الفاتحين، وسار كثير من القبط على نهج إخوانهم بعد ذلك بسنين قليلة[٢]. وفي عهد عثمان بن عفان (٦٤٣– ٦٥٥م) (٢٣– ٣٥هـ) بلغ خراج مصر اثني عشر مليون دينارا، ثم نقص بعد سنين قليلة إلى خمسة ملايين في عهد معاوية بن أبي سفيان (٦٦١– ٦٧٩) (٤١– ٦٠هـ)، وذلك بسبب دخول عدد كبير في الدين الإسلامي؛ ثم أخذ الخراج في النقصان في عهد عمر بن عبد العزيز (٧١٧– ٧٢٠م) (٩٩–١٠١هـ)، حتى إن والي مصر[٣] اقترح ألا يعفى من يدخلون في الإسلام بعد ذلك من أداء الجزية. ولكن الخليفة التقي أبى أن يجيب هذا الوالي إلى طلبه قائلا إن الله بعث مُحَمَّدا داعيا ولم يبعثه جابيا[٤].

ولكن الولاة الذين جاءوا بعد ذلك اعترفوا أن مثل هذه السياسة تضر بالدولة لأسباب تتعلق بمال الجباية، وألحوا بأن يؤدي الذين يدخلون في الإسلام الضرائب كما كانوا يؤدونها من قبل. على أن مثل هذه السياسة لم يقدر لها الاستمرار، وعمل كل وال

Caetani, vo0l. iv. Pp.515-16.

(١) **Bell, P. xxxvii**. ولكن الظلم والعناء الذين لم يكن بد من أن يقاسيهما القبط بعد الفتح بنحو سبعين سنة، تسمح لنا كما يقول المقريزي في شيء من الجهد بأن نمد هذه الفترة إلى الحد الذي عينه فون رابكي بقوله: ونعرف عن طريق أصدق الأدلة أن أهالي مصر في القرون التالية كانوا في ظل السيادة العربية يعيشون في حالة مرضية **(Weltgeschichte, vol, v.p. 153, 4th ed).**

(٢) المصدر نفسه ص٥٨٥. فكثير من المصريين الذين كانوا من المسيحيين الزائفين أنكروا الديانة المقدسة الكاملة والتعميد الذي يهب الحياة، وانحازوا إلى ديانة المسلمين أعداء الله، وقبلوا المذهب... الذي جاء به ذلك المخلوق، مُحَمَّد، لقد ساهموا في ضلال المشركين واستنشقوا السلام في وجه المسيحين».

(٣) ويظهر أن قرة بن شريك (ولي مصر من سنة ٧٠٩ إلى سنة ٧١٤م) (٩٠– ٩٦هـ) أو سلفه قد أصر على أن يستمر الذي تحولوا إلى الإسلام في أداء الجزية **(Becker, Papyri Schott- Reunhardt, P.180)**.

(٤) ابن سعد: الطبقات ج٥ ص٢٨٣.

من هؤلاء الولاة برأيه، وبصورة تقوم على التعسف وعدم النظام[١]. فقد ذكروا أن حفص بن الوليد الذي ولى مصر في سنة ٧٤٤م (١٠٨هـ) لما وعد بإعفاء جميع الذين يدخلون في الإسلام من الجزية، انتحل هذا الدين عدد بلغ أربعة وعشرين ألفا[٢]. وقد قيل أن أبا العباس السفاح أول الخلفاء العباسيين أذاع بيانا مماثلا على أثر اعتلائه عرش الخلافة في سنة ٧٥٠م (١٣٢هـ)، إذ «كتب إلى جميع مملكته أن كل من يصير على دينه ويصلي كصلاته يكون بغير جزية، فمن عظم الخراج والكلف عليهم أنكر كثير من الأغنياء والفقراء دين المسيح وتبعوه»[٣].

والحق أن كثيرا من مسيحيي مصر تركوا النصرانية بمثل هذه السهولة وتلك السرعة التي اعتنقوا بها النصرانية في مستهل القرن الرابع الميلادي. وقبل هذا العصر كانت جماعة صغيرة جدا من سكان وادي النيل تدين بالمسيحية، ولكن ما عاناه الشهداء في اضطهادات دقلديانوس، وما دون عن المعجزات التي أتى بها هؤلاء الشهداء، والشعور القومي الذي أثارته روح المقاومة لأوامر الحكومة الأجنبية[٤]، وما أعطوا من الضمانات بأن جنة النعيم قد فتحت أبواب لكل شهيد مات على أيدي معذبيه، كل أولئك قد أثار في نفوسهم حماسة أدت إلى سرعة انتشار الدين المسيحي بصورة لا يكاد يصدقها العقل، «وبدلا من أن يتنصر المصريون عن طريق التبشير، كغيرهم من أهالي بلاد المشرق، نراهم ينتحلون المسيحية في غمرة من الحماسة الجامحة، دون أن يتلقوا أي شيء من التبشير أو التعليم عن الدين الجديد غير اسم عيسى المسيح الذي خلع حياة من السعادة الأبدية على جميع الذين اعترفوا بوجوده»[٥].

ومن المرجح أن تأثير المسيحية في السواد الأعظم من أهل مصر كان قليلا في القرن

---

(١) Caetani, vol, iv.P. 618; v.pp.384-5.

(٢) سويرس ص١٧٢-١٧٣.

(٣) المصدر نفسه ص٢٠٨-٢٠٦.

(٤) وليس من شك في أنه كان في كثرة الشهداء ضرب من مقاومة الحكام الغرباء في سبيل الوطن (Amélineau, P58)

(٥) Amélineau, PP. 57-8.

السابع. وإن التعليقات النظرية التي استغلها زعماؤهم في إثارة شعور الكراهية والمقاومة في وجه الحكومة البيزنطية، كان يمكن أن يدركها عدد قليل جدا من الناس؛ كما أن سرعة انتشار الإسلام في الأيام الأولى من الاحتلال العربي قد تكون راجعة إلى عجز ديانة كالديانة المسيحية وعدم صلاحيتها للبقاء، أكثر من أن تكون راجعة إلى الجهود الظاهرة التي قام بها الفاتحون لجذب الأهلين إلى الإسلام. وأن الأساس اللاهوتي لبقاء اليعقوبيين حزبا منفصلا، والشعائر التي جاهدوا في سبيل الاحتفاظ بها وقتا طويلا، ودفعوا ثمنا غاليا في هذه السبيل، قد اجتمعت في عقائد كانت صيغتها أشد ما تكون غموضا وإبهاما من الناحية الميتافيزيقية. ولا شك أن كثيرًا من هؤلاء قد تحولوا، وقد أخذت الحيرة منهم كل مأخذ، واستولى على نفوسهم الضجر والإعياء من ذلك الجدل السقيم الذي احتدم من حولهم، إلى عقيدة تتلخص في وحدانية الله البسيطة الواضحة، ورسالة نبيه مُحَمَّد.

بل إننا نجد في داخل الكنيسة القبطية نفسها في عصر متأخر شواهد تنبئ عن حركة، إن لم تكن إسلامية خالصة، فقد كانت على الأقل وثيقة الصلة بها، وربما ساعد عدم وجود أي نظام كنسي مستقل، يجد طريقة لإيضاحه والتعبير عنه، على زيادة عدد الذين دخلوا في الإسلام. وفي أوائل القرن الثاني عشر كان بدير القديس أنطونيوس (بمقربة من إطفيح على النيل) راهب يدعى بلوطس، وكان عالما ومعلما خبيرا بأوضاع الدين المسيحي وسيرة الرهبنة ماهرا في حقوق ما يلزم من القوانين الشرعية، وأصاده الشيطان في شرك من شراكه، فاعتقد اعتقادا مخالفا لما وضعه الآباء الثلثمائة والثمانية عشر (بمجمع نيقية). وأفسد عقول جماعة كبير ممن ليس له معرفة ولا دراية بالأمانة الأرثوذكسية، وأشاع من فمه النجس ومنطقه الخبيث أن المسيح ربنا له المجد، كأحد الأنبياء، وصار مجتمعا بالأشرار من أهل الملة وهو لابسا شكل الرهبنة متمنطقا بالزونية والأسكيم، وإذا سئل عن مذهبه واعتقاده فيقول إنه موحد وظهرت مقالته في سنين آخرها تسع وثلاثين وثمانمائة للشهداء الأبرار (١١٢٣م)، ومات وانقطع ذكره إلى الأبد»[١].[*]

([١]) أبو صالح الأرمني ص١٦٣–١٦٤.

([*]) وردت أخطاء لغوية ونحوية في هذا النص أبقينا عليها وتركناها لفطنة القارئ.

أضف إلى ما تقدم أن نظرية الحياة المسيحية التي وجدت أقصى ما يمكن إدراكه والتعبير عنه في التقشف في أكبر صورة[١] قد استطاعت أن تظهر بعض الميل نحو الآداب الإسلامية الأكثر إنسانية[٢]. ولكثرة عدد القبط الذين كانوا يعتنقون الإسلام من حين إلى حين، أخذ أتباع النبي يعتبرونهم أشد ميلا لقبول الدين الإسلامي من أية طائفة أخرى. ومع أنهم قد تعرضوا لتحمل أشد أنواع الظلم والاضطهاد في كثير من المناسبات، قيل إن القبط الذين حملوا على ترك دينهم على هذا النحو كانوا أقل عددا بالنسبة إلى هؤلاء الذين غيروا دينهم عن طواعية[٣]. حتى في القرن التاسع عشر في الوقت الذي قيل فيه إن مصر كانت أشد البلاد الإسلامية تسامحا في الدين، لم تخل سنة من السنوات لم يتحول فيها القبط إلى الإسلام[٤]. أضف إلى ذلك أن الاضطهاد والظلم قد قاما من غير شك بدور كبير في نقص عدد القبط، وإن قصة آلام كنيسة اليعاقبة في مصر، التي اضطهدها كذلك إخوانهم في الدين من المسيحيين[٥] وأتباع المذهب السائد في هذه البلاد، لتثير أشد ألوان الحزن والأسى.

وقد ترك كثيرون دين آبائهم ليتخلصوا من الضرائب الثقيلة والتحقير والشتائم التي

---

(١) Amélineau, pp, 53-4, 69-70.

(٢) أمدنا أبو صالح ببيان يشتمل على بعض الرهبان الذين انتحلوا الإسلام، ولا يبعد أن يمثل هؤلاء عددا أكبر من الرهبان الذين لم يترك هذا المؤرخ ثبتا بأسمائهم بسبب افتقاره إلى معرفة الظروف التي لا بعث ما لحق بهذا الدير من التلف أو ما حدث مما جعل أمثال هذه الحوادث ذات أهمية لديه (ص١٢٨، ١٤٢).

(٣) lane, pp. 546, 549.

(٤) Lüttke (1), vol. PP.30, 35.: وقد كتب الدكتور أندرو وطسون Dr.Andrew Watson لم تمر سنة واحدة في الأربع والأربعين سنة التي أقمتها في وادي النيل دون أن أسمع عن أمثلة عدة للمروق عن الدين لأسباب أهمها الأمل في نيل أغراض "نيوية مختلفة الأنواع، والاضطهاد القاسي المستمر، والتعرض لقسوة جيرانهم من المسلمين، وميلهم للنهب، وتعرضهم للمهانة، والضعف السياسي على اختلاف أنواعه".
(Islam in Egypt: Mohammedan World, P.24).

(٥) سويرس بن ا لمقفع ص ١٢٢، ١٢٩، ١٤٣. ومن أولى المناسبات التي ضحوا فيها بالشكوى من الضرائب الفادحة ما حدث عندما أخذ ميناس والي مصر السفلى من مدينة الإسكندرية ٣٢.٥٧ قطعة من العملة الذهبية كرها بدلا من ٢٢.٠٠٠ قطعة كان عمرو قد قرر جمعها (يوحنا أسقف نقيوس ص٥٨٥) وقال رينودو (Renaudot, P.168) أنه بعد أن استرد رجال الكنيسة سلطانهم بعد الفتح الإسلامي بنحو سبعين سنة، لاقى القبط على يد الكنيسة بقدر ما قاسوا على أيدي المسلمين أنفسهم.

لا تحتمل، وإن الفرق الشاسع في ذلك بين حالتهم وحالة مسيحيي سورية وفلسطين والأندلس في العصر نفسه، لتجد ما يعبر عنها في الثورات التي أشعل نيرانها القبط أنفسهم، ويظهر أن نزاعهم الطويل الذين قاموا به في وجه استبداد بيزنطة من الناحيتين المدنية والدينية، قد أثر ذوي الغيرة على الدين وحولهم إلى جماعة وطنية استطاعت أن تصبر قليلا على حكم الأجانب من العرب كما صبروا على حكم البيزنطيين من قبلهم، وإن الثورة التي قاموا بها القبط في وجه سادتهم الجدد في سنة ٦٤٦، حين طردوا العرب من الإسكندرية إلى حين، وفتحوا أبواب هذه المدينة للجيوش البيزنطية (التي عاملت القبط المنكودين كأعداء، والذين لم يكونوا قد نسوا بعد الحفاوة التي قابلوا بها غزاة المسلمين من قبل) – كانت الأولى من سلسلة الثورات والفتن[١] التي طالما أثارتها الضرائب الفادحة التي دفعتهم إلى القتل وعرضت جماعة المسيحيين من اليعاقبة في مصر إلى الصلابة في تحمله أكثر من أية فرقة من الفرق المسيحية في هذه البلاد أو في البلاد الأخرى التي كانت تحت حكم المسلمين.

ولكن تاريخ هذه الحوادث يتصل بتاريخ اضطهاد المسلمين وتعصبهم الديني، أكثر مما يتصل بموضوع هذا الكتاب. على أنه يجب أن لا نفرض أن حالة القبط كانت على الدوام حالة طائفة مضطهدة[*]؛ بل على العكس كانت هناك فترات كانوا يترقون فيها إلى المناصب التي يتمتع أصحابها بالشهرة والغنى في الدولة. فملأوا مناصب الوزراء والكتاب في دواوين الحكومة[٢]، وحددوا قيمة الضرائب التي تجبى على الأرض التي تعطى على سبيل الالتزام[٣]، وجمعوا ثروة ضخمة[٤] في بعض الحالات، ولقد أمدنا تاريخ كنيستهم

---

(١) ذكر المقريزي خمسا من الفتن الأخرى التي أثارها القبط والتي لم يكن بد من أن تقمع بقوة السيف في خلال القرن الأول لسيادة العرب (المقريزي (٢) ص٧٦–٨٣).

(*) راجع ما ذكره المقريزي (ج١ ص٧٩– ٨٠) عن انتفاض القبط وما كان من الأحداث في ذلك، وما ذكره عن دخول النصارى من قبط مصر في طاعة المسلمين وأدائهم الجزية واتخاذهم ذمة لهم وما كان في ذلك من الحوادث والأنباء (ج٢ ص٤٩٢– ٥٠١)

(٢) Renaudot, pp.189, 374, 430, 540.

(٣) Id. P. 603.

(٤) Id. PP. 432, 607. Nasir- i- Khusrau: Safar- namah, ed, schefer, pp. 115-6.

بكثير من الأمثلة عن رجال الكنيسة الذين تمتعوا بعطف الأمراء الذين حكموا بلادهم ونعم القبط في عهدهم بأقصى درجات الطمأنينة[١]. وإلى مثل هذه الفقرة التي تمتعت فيها الكنيسة بالسلام، يرجع ذلك الحادث الذي أدى إلى اندماج كثير من المسيحيين في جماعة المؤمنين.

وفي عهد صلاح الدين الأيوبي في مصر (١١٦٩– ١١٩٣م) (٥٦٤– ٥٨٩هـ) تمتع المسيحيون بالسعادة إلى حد كبير، في ظل ذلك الحاكم الذي عرف بالتسامح الديني. فقد خفف الضرائب التي كانت فرضت عليهم، وأزال بعضها جملة، وملأوا الوظائف العامة كوزراء وكتاب وصيارفة. وفي عهد خلفاء صلاح الدين نعموا بمثل هذا التسامح والرعاية، قرابة قرن من الزمان. ولم يكن هناك ما يشكون منه إلا ما اتصف به كهنتهم أنفسهم من الفساد والانحطاط. فقد فشت السمونية بينهم، فبيعت مناصب القسيسين الذين اتصفوا بالجهل والرذيلة، على حين حيل بين الذين طلبوا التعيين وبين هذا المنصب المقدس بعجزهم عن أداء الأموال المطلوبة في احتقار وازدراء، مع أنهم كانوا من الجديرين يشغل هذا المنصب، وكان من أثر ذلك أن أهمل تثقيف الناس روحيا وخلقيا إهمالا تاما.

وبلغت الحياة المسيحية درجة محزنة من الانحلال[٢] كما بلغ من فساد الكنيسة أنه عند وفاة يوحنا الرابع والسبعين من بطارقة اليعاقبة في سنة ١٢١٦م، كان لا بد من انتخاب خليفة له، وقام بين الجماعات المتعادية المتناحرة التي ولجت في إثارة حقوق المرشحين المتنافسين، نزاع عنيف استمر نحو عشرين سنة. إلا أنه لم يكن من سبيل إلى إصلاح ذات البين بين هذه الجماعات؛ فقد كان اهتمامهم طوال ذلك الوقت بما قد يترتب على ذلك من نتائج محزنة مخزية ضارة، أقل من اهتمامهم بالمحافظة على روح التحزب التي تنطوي على العناد وإثارة الشقاق. وفي أكثر من مناسبة، حاول السلطان الجالس على العرش أن يصلح بين هذه الفرق المتخاصمة، ورفض ما عرضته عليه من رشا

---

(١) Ranaudot, pp.212, 225, 314, 540.

(٢) Renaudot, p.588.

ضخمة بلغت الثلاثة الآلاف والخمسة الآلاف، بل عشرات الآلاف قطعة من العملة الذهبية ليغروه بأن يكفل لهم اختيار أحد المرشحين بالضغط وباستعمال نفوذه الرسمي.

بل لقد عرض عليهم هذا السلطان أن يتجاوز عن المطالبة بالرسوم التي اعتاد أن يؤديها البطريق الذي يفوز حديثا بالانتخاب، لو أنهم طرحوا منازعاتهم ووصلوا إلى شيء من الاتفاق، ولكن هذه الجهود لم تحقق أي غرض من الأغراض، وخلا في الوقت نفسه كثير من الأسقفيات، ولم يكن هناك من يحل محل الأساقفة والقسيسين الذين ماتوا في تلك الفترة؛ ففي دير القديس مكاريوس وحده لم يبق غير أربعة من القسيسين بعد أن كان عددهم قد تجاوز الثمانين في عهد الطريق السابق[١]. وقد بلغ من شدة إهمال مسيحيي أبرشيات الكنيسة الغربية أنهم تحولوا إلى الإسلام[٢]. ويؤسفنا أن ليس لدينا ما نريده على هذا البيان الجرئ الذي أتى به مؤرخ الكنيسة القبطية من المعلومات عن الجهود الفعالة التي بذلها المسلمون في سبيل تحويل هؤلاء المسيحيين إلى دينهم. وإذا كانت ثمة جهود قد بذلت في هذا السبيل، فهذا أمر لا يثير غير قليل جدًا من الشك، وخاصة إذا علمنا أن المسيحيين قد قاموا بمحاولات علنية وشغلوا أنفسهم بتدوين المناقشات والمناظرات عن مزايا كل ديانة بالنسبة إلى غيرها[٣] من الديانات المنافسة لها..

ومما يدل على أن تحول المسيحيين إلى الإسلام لم يكن راجعا إلى الاضطهاد، ما وقفنا عليه من الشواهد التاريخية الأصلية وهو أنه في الوقت الذي شغر فيه كرسي البطرقية، تمتع المسيحيون بالحرية التامة في إقامة شعائرهم، وسمح لهم بإعادة بناء كنائسهم بل ببناء كنائس جديدة، وتخلصوا من القيود التي حتمت عليهم أن يركبوا الحمير والبغال،

---

(١) Id, pp. 567, 571, 574-5.

(٢) Wansleben, p.30. ذكر في فصلين مثلا آخر وقع في ظروف متباينة عن تدهور الكنيسة القبطية في جزيرة قبرص التي كانت من قبل تحت نفوذ البطريق القبطي في المسائل القضائية، وقد بلغ من اضطهاد رجال الدين من الأرثوذكس، الذين تمتعوا بحماية الأباطرة البيزنطيين، لم يستطع أن يقنع القسيين الذهاب إلى هنالك. وكان من أثر ذلك أن جميع القبط الذين أقاموا في الجزيرة، قبلوا الإسلام دينا لهم، أو اعترفوا بمجمع خلقدونية، وأغلقت كنائسهم جميعا (Id. P.31)

(٣) Ranaudot, p. 377.

وحوكموا في محاكمهم الخاصة، على حين أعفى الرهبان من دفع الجزية، ومنحوا امتيازات معينة[١].

ومن الصعب أن نقدر إلى أي حد يعد هذا الحادث مثلا لانتشار الإسلام بين القبط، وقد ذكر حالة مشابهة لهذا الإهمال اثنان من الرهبان الكوشيين[*] قاما برحلة في النيل في القرن السابع عشر الميلادي إلى الأقصر، فوجدا أن القبط في هذه المدينة لم يكن لهم قسيس، وأن بعضهم لم يذهب للاعتراف أو يحضر القداس أو العشاء الرباني مدة خمسين سنة[٢]. وفي مثل هذه الظروف نستطيع أن ندرك بسهولة قلة عدد القبط، وقد حدث إهمال مماثل ربما يعزى إلى انحلال الكنيسة النوبية التي اعترفت بسيادة بطريق الإسكندرية اليعقوبي عليها، كما كان تفعل الحسبة حتى الوقت الحاضر، وقد تحول النوبيون إلى المسيحية حول منتصف القرن السادس الميلادي، واستردوا استقلالهم عندما فتح العرب مصر؛ وعقدت معاهدة كانوا بمقتضاها يقدمون في كل عام ثلاث مائة وستين من العبيد بالإضافة إلى أربعين عبدا يقدمونهم إلى والي مصر، على أن يمدهم العرب بالغلال والزيت والملابس[٣].

وفي عهد الخليفة المعتصم (٨٣٣– ٨٤٢م) أرسلت السفراء ليجددوا هذه المعاهدة، وزار ملك النوبة حاضرة مصر حيث قوبل بالتعظيم والتبجيل، ثم عاد يحمل معه هدايا ثمينة ذات قيمة[٤]. وكان جميع النوبيين في القرن الثاني عشر لا يزالون على المسيحية[٥] واحتفظوا باستقلالهم القديم على الرغم من الحملات المتكررة التي كانت ترسل إليهم من مصر[٦]. وفي سنة ١٢٧٥م استطاع ابن أخي ملك النوبة في ذلك الحين

---

(١) Ibid, P.575.

(*) الكيوشيون هم لابسر الفلانس من رهبان الفرنسسكان نسبة إلى Capuche أي قلنسوة.

(٢) Relation du voyage dy sayed ou de la Thebayde fait en 1668, par les PP. Protails et Charles- François d'orleans. Capuchins Missionaries, P.3 (Thevent, vol ii).

(٣) Caetani, vol. I v.P.520.

(٤) Ishok, of Romgla, pp. 272-3

(٥) الإدريسي ص٣٢.

(٦) المقريزي (٢) ج١ القسم الثاني ص١٣١.

أن يظفر من سلطان مصر بقوة من الجيش تشد أزره في الثورة التي أعلنها على عمه. وقد استطاع بمعونتهم أن يعزله، ولم يكن بد من أن ينزل للسلطان عن ولايتين في أقصى شمال النوبة جزاء مساعدته. ولما كان أهالي هذه المنطقة قد اختاروا البقاء على دينهم المسيحي، فقد فرضت عليهم جزية سنوية مقدارها دينار واحد على كل ذكر منهم[١]. على أن السيادة الإسلامية على هاتين الولايتين لم تكن إلا وقتية، فسرعان ما استعاد النوبيون الذين كانوا يسكنون في هاتين الولايتين استقلالهم[٢].

ولكن العرب كانوا قد استقروا في النوبة قبل ذلك بعدة قرون، وزاد عدد العرب القاطنين على ضفاف النيل الأزرق، كما زادت ثروتهم زيادة كبيرة في القرن العاشر، حتى إنهم استطاعوا أن يلتمسوا الإذن ببناء مسجد في سوبة[٣]، عاصمة المملكة المسيحية[٤].

وفي القرن الثالث عشر، ومن أوائل القرن الرابع عشر خاصة، بدأ عن طريق الهجرة إلى بلاد النوبة اندماج العرب، ولا سيما قبيلة جهينة الذين تزوجوا من نساء هذه البلاد، ونجحوا شيئًا فشيئًا في كسر شوكة الأمراء النوبيين[٥]. ويخبرنا ابن بطوطة[٦] في النصف الثاني من القرن الرابع عشر أن النوبيين كانوا في وقته لا يزالون على المسيحية، مع أن ملك مدينة دنقلة[٧]، تلك المدينة الرئيسية في بلاد النوبة، كان قد دخل في الإسلام، وذلك في عهد الناصر (وربما كان هو الناصر مُحَمَّد بن قلاوون أحد سلاطين مصر من المماليك الذي توفي في سنة ١٣٤٠م). ولم تفلح الحملات المتكررة التي قام بها المسلمون في عصر متأخر كالقرن الخامس عشر في تقدم فتوحهم جنوبي الشلال الأول حيث كان

---

(١) المقريزي ص١٢٨–١٣٠.

(٢) **Burchardt (1), P.494.**

(٣) ترتفع على بعد اثني عشر ميلا تقريبا من مدينة الخرطوم الحديثة

(٤) **Artin, PP. 62.144**

(٥) **Becker, Geschichte . des östlichen, P.160.**

(٦) ج٤ ص٣٩٦.

(٧) ويسجل سلاطين باشا أسطورة متداولة بين عرب دنقلة، وهي أن هذه المدينة قد أسسها جدهم الأكبر دنقل الذي سمى المدينة باسمه (على أن هذا الزعم محال نظرًا لأن دنقلة كانت في عصور المصريين القدماء، وذكرت في الآثار. انظر **Vuren de Saint- Martin, vol. ii.P.85)**، وتذكر الأسطورة أن هذا المدعو دنقل، مع أنه عبد تمكن من أن يكون حاكما لبلاد النوبة، غير أنه كان يؤدي الجزية إلى بجنسا، الأسقف القبطي لكل الإقليم الواقع بين راس والديه الحاليين.

(Fire and Sword in the Sudan, P.13) (London, 1896).

يقع بالقرب منه آخر معقل من معاقلهم[1]، على حين كانت المسيحية، فيما يظهر، تمتد بعيدا على طول نهر النيل حتى مدينة سنار.

ويظهر أن المملكة النوبية المسيحية قد صارت إلى الزوال، لظهور الانقسامات الداخلية من ناحية، ولهجمات القبائل العربية والإغريقية التي كانت تغير على حدود هذه المملكة من ناحية أخرى، وأخيرا لقيام دولة الفونج القوية في القرن الخامس عشر[2].

ولكن من الجائز أن الإسلام في هذه البلاد كان يلقى خلال ذلك الوقت رواجا على أيدي التجار وغيرهم من المسلمين الذين كانوا يترددون عليها، وقد نقل المقريزي الذي كتب في مستهل لاقرن الخامس عشر حكاية تتعلق بالدعوة، لا نجد لها ذكرا في مؤلفات العرب إلا في القليل النادر. وقد روى هذه القصة ابن سليم الأسواني، وهي من الأهمية بحيث تعطينا صورة حية للداعي المسلم الذي يعمل على نشر دعوته. ومع أن الداخل في الإسلام الذي أشارت إليه القصة لم يكن مسيحيا ولا نوبيا، فإن القصة مع ذلك تبين لنا أنه كان هنالك شيء كهذا يتعلق بتحويل الناس إلى الإسلام في بلاد النوبة في القرن الخامس عشر.

ويقول ابن سليم إنه رأى ذات مرة رجلا في مجلس نوبي كان عظيم المقرة، وسأله عن بلده فقال مسافته إلى النيل ثلاثة أهلة، وسأله عن دينه فقال: «ربي وربك الله، ورب الملك ورب الناس كلهم واحد، وهو كائن في السماء وحده، فإذا أبطأ عنهم المطر أو أصابهم الوباء، أو وقع بواديهم آفة صعدوا الجبل، ودعوا الله فيجابون للوقت، وتقضى حاجتهم قبل أن ينزلوا. فلما أقر الرجل أن الله لم يرسل قط رسولا فيهم، ذكر له ابن سليم بعثة موسى وعيسى ومُحَمَّد صلوات الله عليهم، وما أيدوا به من المعجزات فقال: «إذا كانوا فعلوا هذا فقد صدقوا؛ وقد صدّقتهم إن كانوا فعلوا»[3].

---

(1) ابن سليم الأسواني نقلا عن المقريزي: كتاب الخطط ج١ ص٩٠ (القاهرة ١٢٧٠هـ)

(2) Budge, vol.ii.P.199. Artin, p144.

(3) المقريزي: كتاب الخطط ج١ ص١٩٣.

ويظهر أن النوبيين قد انساقوا إلى المسيحية إلى الإسلام بالتدريج وفي بطء شديد[١]، وكانت الحياة الروحية في كنيستهم قد انحدرت إلى أقصى دركات الانحطاط. ولما وجد المسيحيون ألا أمل في قيام حركة للإصلاح في مجتمعهم، وأنهم قد فقدوا الاتصال بكنائسهم التي تقع فيما وراء حدودهم، لم يكن من الطبيعي إلا أن ينشدوا ما يشفي غلتهم ويسد رمقهم الروحي في الدين الإسلامي الذي حمل أتباعه بين هؤلاء الدليل على قوة حيويته وقتا طويلا، كما كانوا قد ظفروا بفريق من مواطنيهم الذين قبلوا الدخول في هذا الدين. وقد حفظ قسيس برتغالي تنقل في بلاد الحبشة بين سنتي ١٥٢٠، ١٥٢٧ صورة عن النوبيين في هذا الدور من الانتقال؛ إذ كتب يقول إنهم لم يكونوا نصارى ولا يهود ولا مسلمين، ولكنهم أصبحوا بحيث لا يدينون بدين ولا يعترفون بقانون، ولكنهم من ذلك «كانوا يعيشون تحدوهم الرغبة في أن يكونوا مسيحيين».

وقد انحدروا إلى أحط دركات الجهل بسبب ما وقع فيه رجال الكنيسة من خطأ، فلم يكن بين هؤلاء النوبيين أساقفة ولا قساوسة في ذلك الوقت. وكان من أثر ذلك أن أرسلوا إلى ملك الحبشة بعثة مؤلفة من ستة رجا، يلتمسون منه أن يرسل إليهم قسيسين ورهبانا لتعليمهم، ولكن النجاشي أبى أن يفعل إلا بعد أن يستأذن في ذلك بطريق الإسكندرية، ولما لم يظفروا بهذا الإذن، رجع هؤلاء السفراء السيئو الحظ إلى أوطانهم يجرون أذيال الخيبة[٢]. وقد روى مسيحي كان قد سافر إلى بلاد النوبة لهذا الكاتب نفسه، أنه كان قد عثر على ١٥٠ كنيسة هنالك، كان لا يزال في كل منها صور المسيح المصلوب، ومريم العذراء، وبعض القديسين منقوشة على الجدران، كذلك وجدت كنائس[٣] في كل القلاع التي كانت منبثة في جميع أنحاء البلاد. وقبل نهاية القرن التالي،

---

(١) Morie, vol, i.pp 417-18.

(٢) يذكر لورد ستانلي اف الدولي Stanly of Alderly في ترجمته لكتاب ألفاريز Alvarez من الأصل المكتوب باللغة البرتغالية أن رد الملك ع٨ليه٠م كان كما يأتي: «قال لهم إنه قد حصل على المطران من بلاد البربر، يعني ذلك من جهة بطريق الإسكندرية.. فكيف يستطيع إذن أن يمد غيره بقسيسين ورهبان، مادام غيره» (P. 352, London, 1881)

(٣) Viggio nella Ethiopia al Prete lanni fatto par Don Francescon, Alvarez Portughese (1520-1527). (Ramusio, tom. i. pp.200.250).

ذهبت معالم المسيحية من بلاد النوبة، «وذلك بسبب النقص في عدد رعاة الكنيسة». أما الكنائس المغلقة فلم يكن بد من أن تظل قائمة في أنحاء البلاد[١].

وقد خضع النوبيون للمؤثرات الإسلامية القوية التي أحاطت بهم، ويرجع إليها أكبر الفضل في الجهود التبشيرية التي قام بها المسلمون الذين تنقلوا في بلاد النوبة في القرون الماضية؛ ففي الشمال كانت مصر وكذلك القبائل العربية التي كانت قد أخذت طريقها تجاه منابع النيل، ووسعت سلطانها على طول ضفاف ذلك النهر[٢]؛ وفي الجنوب كانت ولاية قبائل بلو Belloos الإسلامية تفصل بينهم وبين بلاد الحبشة [٣].

وكانت هذه القبائل في مستهل القرن السادس عشر خاضعة لملك الحبشة المسيحي، على الرغم من أنها كانت تدين بالإسلام. وإذا صح أن هؤلاء البلو هم البليون الذين تحدث عنهم الإدريسي في القرن الثاني عشر، وعدهم من النصارى اليعاقبة[٤]، وقرن اسمهم باسم قبائل البجة (سكان الجزيرة التي تعرف باسم جزيرة مرو) الذين كانوا يقطنون بجوارهم، فمن الجائز أنهم لم يقضوا إلا أعواما قليلة قبل أن يتحولوا إلى الإسلام، في الوقت الذي أسلم فيه قبائل البجة الذين كانوا قد اندمجوا في دولة الفونج الإسلامية حين مد هؤلاء فتوحهم بين سنتي ١٤٩٩، ١٥٣٠ من الجنوب حتى حدود بلاد النوبة والحبشة، وأسسوا ولاية سنار القوية.

وعندما غزا جيش أحمد جراني بلاد الحبشة، وشق طريقه في البلاد من الجنوب إلى الشمال، اتصل حول سنة ١٥٣٥ بجيش سلطان مسيحية أو مزجة Maseggia or Mazaga، وهي ولاية خاضعة لحكومة إسلامية، ولكنها كانت تدفع الجزية لبلاد الحبشة، وتقع هذه الولاية بين بلاد الحبشة وسنار. وكان في جيش هذا السلطان ١٥ ألف جندي

---

(١) Wanslebien, P.30 للاطلاع على وصف البقايا التي لا تزال باقية من هذه الآثار، راجع Budge vol ii. p.299 sqq G.s Nileham, churches in lover, Nubia, (Philadelphia, 1910)

(٢) Burckhardt (I) P.133.

(٣) Alvarez, P.250.

(٤) الإدريسي ص٣٢.

من النوبيين، وكانوا فيما يظهر لنا مما روى عنهم، يعتنقون الدين الإسلامي[١]. ولما كانت أخبار تحول النوبيين إلى الإسلام شذرات غير كافية، فإننا نستطيع من غير شك أن نستخلص من كل ما نعرفه عن هذا الشعب الذي جبل على الاستقلال، والذي عرف بتشبثه بالدين المسيحي طالما كان هذا الدين قوة حية بينهم، أن تحولهم عن دينهم قد تم تدريجيا خلال قرون كثيرة.

ولننتقل الآن إلى الكلام على تاريخ الإسلام بين الحبش الذين كانوا قد دخلوا في المسيحية قبل النوبيين بقرنين، وخضعوا مثلهم للكنيسة اليعقوبية.

ويبدو أن تيار الهجرة العربية لم يكن قد تجاوز البحر الأحمر الذي كانت سواحله الغربية تكون جزءا من مملكة الحبشة إلا بعد أن دخل العرب في دين مُحَمَّد بقرون كثيرة. ولم تكن هنالك حتى القرن العاشر الميلادي إلا أسر إسلامية قليلة العدد، تقيم في مدن الحبشة الساحلية، إلا أنه في نهاية القرن الثاني عشر أدى تأسيس دولة عربية إلى فصل بعض الأراضي الساحلية عن المملكة الحبشية، وحدث في عام ١٣٠٠ أن شق تأسيس دولة عربية إلى فصل بعض الأراضي الساحلية عن المملكة الحبشة. وحدث في عام ١٣٠٠ أن شق أحد الدعاة، ويدعى أبا عبد الله مُحَمَّد، طريقه إلى بلاد الحبشة، داعيًا أهلها إلى الإسلام، فلما تمكن من أن يجمع حوله مائتي ألف شخص، هجم في السنة التالية على حاكم أمهرة، واشتبك معه في معارك كثيرة[٢].

وقد اتخذ الملك سيف أرعد (١٣٤٢– ١٣٧٠م) تدابير صارمة ضد المسلمين في مملكته، تقضي بإعدام كل من أبى الدخول المسيحية أو نفيهم من البلاد[٣]. وفي نهاية القرن نفسه عمت البلاد حالة قلق واضطراب لانشغالها بالحروب الداخلية، ومهدت تلك الحالة السبيل للقبائل العربية المختلفة التي استقرت على طول الساحل، لأن يجعلوا

---

(١) عرب فقيه ص٣٢٣.

(٢) المقريزي (٢) ج٢ القسم الثاني ص١٨٣.

(٣) Baset, P420.

من أنفسهم سادة على المنطقة الساحلية بأجمعها، وطردوا الأحباش إلى المناطق الداخلية. وقد قيل إن الملك بئيد ماريام (١٤٦٨– ١٤٧٨) قضى الجزء الأكبر من حكمه في محاربة المسلمين الذين كانوا يقيمون على الحدود الغربية من مملكته[١]. وفي مستهل القرن السادس، بينما كانت مملكة عدل الإسلامية القوية الواقعة بين بلاد الحبشة والأطراف الجنوبية للبحر الأحمر وغيرها من الممالك في عداء مستحكم مع القوة المسيحية، كانت هناك ممالك أخرى تؤلف جماعة مسالمة خاضعة للقديس يوحنا **Prester John**. ومن أمثلة هؤلاء من العرب، كانوا يسكنون في مصوع، ويعيشون في كنف السادة الأحباش، وكانوا يطوفون في جماعات، كل منها يتألف من ثلاثين أو أربعين شخصا، ومعهم نساؤهم وأطفالهم، وعلى رأس كل جماعة «قائدها».

وقد ذكر كذلك أن بعض المسلمين كانوا من خدمة الملك، وأنه كان يسند إليهم مناصب مهمة في الدولة. وفي الوقت الذي نرى فيه بعض هؤلاء يظلون على إخلاصهم للإسلام، نجد بعضا آخر ينتحل الديانة السائدة في البلاد. أما أن هذه الجماعات الإسلامية كانت تؤدي الجزية لملك الحبشة. فهذا أمر لا نستطيع التثبت منه، وقد كان على مسلمي هدية أن يدفعوا جزية أخرى للملك، وهي أن يعطوه في كل سنة بنتا ينصرها له، وجدت هذه العبارة في بلدهم بمقتضى معاهدة كان ملك الحبشة يحكم دائما بها، «وكان أقوى منهم»، ثم إنه حكم عليهم ألا يلبسوا عدة الحرب، ولا يمسكوا السيف، ولا يركبوا خيولهم بالسروج، قالوا: «وحكم علينا.. ونطيعه أن يقتلنا، ويخرب مساجدنا، وإذا أرسل إلينا الذي يتقبل البنت والمال، أخرجنا له البنت على السرير، ونغسلها ونكفنها بثوب ونصلي عليها. ونحسب أنها ميتة، ونعطيها له، فإذا وجدنا آباءنا وأجدادنا يفعلون ذلك»[٢].

وكانت البقاع الرئيسية التي يقطنها هؤلاء المسلمون الذين يدفعون الجزية لملك الحبشة واقعة في الأراضي المنخفضة التي تؤلف حدود الحبشة الشمالية، من البحر الأحمر

---

(١) **Id., P237.**

(٢) عرب فقيه ص٢٧٥– ٢٧٦.

غربا حتى سنار[١]، وفي الجهة الجنوبية[٢] والجنوبية الشرقية من المملكة، وأن القول بما كان لهؤلاء المسلمين من تأثير في الشعوب المسيحية التي اختلطت بهم، وأنهم عملوا على تحويل الناس إلى الإسلام، كما حدث في القرن الحالي، لا يعدو الحدس والتخمين، ولكن هناك أمرا لا شك فيه، وهو ما فعله أحمد جراني أمير عدل المسلم المستقل، وهو يروي عن نفسه أنه كان ابن أحد قساوسة أيجو Aijo المسيحيين. وكان قد ترك موطنه ودخل في الإسلام في عدل[٣] فقد غزا بلاد الحبشة من سنة ١٥٢٨ إلى ١٥٤٣، وانضم إلى جيشه الظافر كثير من زعماء الأحباش مع أتباعهم، وأصبحوا مسلمين، ومع أن أهالي بعض المقاطعات من المسيحيين قد آثروا أداء الجزية[٤]. وانتحل آخرون دين الفاتحين[٥]، غير أن المؤرخ المسلم المعاصر نفسه يذكر لنا أن هذا التحول إلى الإسلام كان في بعض الحالات نتيجة الخوف، وأن الشكوك كانت تساور النفوس حول إخلاص هؤلاء القريبي العهد بالإسلام[٦].

ولكن من الجلى أن مثل هذه الحالة لم يكن عاما بين الناس، وأن هذا التحول الواسع النطاق إلى الإسلام في مقاطعات كثيرة، ليوحي بأن هذه الحركة كانت قد لقيت تأييدا من العامة؛ فقد استغل الزعماء المسيحيون الذين تحولوا إلى الإسلام نفوذهم الشخصي في تحريض جيوشهم على الاقتداء بهم. ويقال إن فريقا منهم كانوا على جهل تام بأصول دينهم[٧]، ومن ثم كان تغيير الدين أمرا أقل صعوبة عليهم، وقد تحول إلى الإسلام بمثل هذه الطريقة الآلية كثير من الناس وخاصة زعماء المسلمين، هؤلاء الذين كانوا قد دخلوا في خدمة ملك الحبشة، وأولئك المرتدون الذين اتخذوا من غزو بلادهم

---

(١) نفس المرجع ص ٣٠٩، ٣٢٤.

(٢) نفس المرجع، ص٢٨، ١٢٩، ٢٧٥.

(٣) Plowdem, P.36.

(٤) نفس المرجع والصفحات.

(٥) ص١٧٥، ١٩٥، ٢٤٨.

(٦) نفس المرجع ص١٧٨.

(٧) عرب فقيه ص٣٤-٣٥، ١٢٠- ١٢٠- ١٢٠، ١٨٢- ١٨٣، ٢٤٤، ٣٢٧.

على أيدي جيش المسلمين الفاتح فرصة لأن ينبذوا في الحالة المسيحية، وطاعتهم للملك المسيحي، وأن يعلنوا إسلامهم من جديد[١].

وفي سنة ١٥٣١م كتب أحد هؤلاء إلى أحمد جراني كتابا هذا نصه: «أنا أول من مسلم وابن مسلم، وأسروني المشركون، ونصروني، وإن قلبي مطمئن بالإيمان، والآن أنا جار الله وجاء رسوله وجارك، أن تقبل توبتي ولا تؤاخذني بما عملته، فأنا تائب إلى الله، وهذه جيوش الملك الذين هم معي، أنا أحتال عليهم حتى يدخلوا عندك ويسلموا». وفي الحق آثر السواد الأعظم من جيشه أن يقتدوا بقائدهم، فأسلموا جميعهم، وهم – فيما يقال – نحو عشرين ألفا مع نسائهم وأولادهم[٢].

ولكن الأحباش استطاعوا بمعونة البرتغاليين أن يخلعوا نير الغزاة المسلمين، وقتل أحمد جراني نفسه في سنة ١٥٤٣. ومع ذلك استقرت دعائم الإسلام في تلك البلاد، وإن حالة القلق التي أصابت مرافق البلاد في البقية الباقية من القرن السادس عشر، وفي القرن الذي يليه، فقد مكنت الإسلام من البقاء، فقد كانت الكنائس المسيحية المتناقشة مشغولا بعضها بعضها بالتنازع مع بعض انشغالا لم يمكنها من التفرغ لعدوها المشترك. فإن ما قام به اليسوعيون من أعمال ناجحة في التبشير، وما فعله المبشرون الآخرون من الرومان الكاثوليك، وما صنعه البرتغاليون من تدخل فعال في كل الشئون المدنية والسياسية – كل ذلك قد آثار مقاومة عنيفة بين جمهرة مسيحيي الحبشة، وكان هذا الشعور مؤلما حقا، حتى لقد بلغ من ألمه أن بعض القواد قد أعلن صراحة أن من الخير لهم أن يخضعوا للحاكم المسلم من أن يظلوا على مخالفة البرتغاليين[٣]؛ وسرعان ما اتخذت الحركة شبه الدينية، وشبه الوطنية التي استقرت هنالك مثل هذه الخطوات الواسعة التي أدت (حول سنة ١٦٣٢) إلى طرد البرتغاليين وإخراج كل المسيحيين الأجانب من البلاد. وسرعان ما أصبحت حالة بلاد الحبشة في ذلك الحين ضربا من الفوضى المزعجة

---

(١) عرب فقيه، ص١٨١– ١٨٢، ١٨٦.

(٢) عرب فقيه، ص١٨١– ١٨٢، ١٨٦.

(٣) Jobi Ludolfi ad suam Historiam Aethiopicam Commentarius. P.474. Frankurt a. M., 1671.

وسوء النظام، وقد استغل بعض قبائل الجلا Galla هذه الفرصة فشقت طريقها إلى قلب البلاد حيث لا تزال الأماكن التي استوطنوها باقية إلى الوقت الحاضر.

ويمكن أن يقدر المرء مدى التقدم الذي أحرزه الإسلام في خلال هذه الفترة مما أثبته رحالة عاش في القرن السابع عشر، إذ يذكر لنا أن منتحلي هذا الدين كانوا في ذلك الوقت منبثين في جميع أنحاء بلاد الحبشة وأنهم يؤلفون ثلث جميع السكان[١]. ويلوح أن دين النبي قد كثر في خلال القرن الذي يليه عن طريق إسلام أفراد كانوا يعيشون في عزلة هنا وهناك، وقد ساعد عدم وجود أية حكومة مركزية قوية على ظهور أمراء مستقلين، وكان كثير منهم يعطف على الإسلام عطفا شديدا، مع أن كل أمراء الحبشة (وذلك طبقا لأحد القوانين الأساسية للدولة) لم يكن بد من أن يتبعوا الدين المسيحي، وكذلك تنكر المسلمون لديانتهم التي نشئوا عليها، تطلعا إلى عظمة الأرستقراطية الحبشية، وتظاهروا بالتحول إلى المسيحية حتى يتمكنوا من الانتظام في سلك الأشراف، واستخدموا كل ما لهم من نفوذ في نشر الإسلام[٢] بكونهم حكاما على الولايات المسيحية. ويظهر أنه كان من أهم الأسباب التي أدت إلى نجاح هذا الدين ما كان للمسلمين من تفوق أدبي إذا ووزنوا بسائر أهالي الحبشة من المسيحيين.

ويقول ربيل Rüppell إنه كثيرا ما لاحظ في خلال رحلاته في بلاد الحبشة، أنه عندما يراد شغل منصب من المناصب التي تتطلب أن يكون الشخص الذي يشغلها أمينا كل الأمانة، موثوقا به تمام الثقة، كان اختيارهم يقع دائما على شخص مسلم. وقد عقد الكاتب مقارنة بينهم وبين المسيحيين، فقال إنهم (أي المسلمين) يقع دائما على شخص مسلم، وقد عقد الكاتب مقارنة بينهم وبين المسيحيين، فقال إنهم (أي المسلمين) كانوا أكثر حيوية ونشاطًا، فقد التزم كل مسلم تعليم أبنائه القراءة والكتابة، في الوقت الذي

---

(١) Histoire de la Ethiopte, par le R. P. Manoel d'almeïda, P.7. (Thevenot, vol.ii).

(٢) Massaja, vol. ii. Pp.205-6 ومن الواضح أن ارتداد نتج من حب السيطرة، لم يكن في الواقع إلا تنفيذ إجراء شكلي، إذ أن هؤلاء المرتدين كانوا مسلمين حقيقيين في قلوبهم وسلوكهم، ومن ثم كانوا إذا ما ارتقوا إلى رتبة "رأس" يحيطون أنفسهم بالمسلمين، ويعهدون إليهم في أكثر الوظائف ويغمرونهم بالألقاب والثروة والنعم، وهكذا انضوت الحبشة المسيحية المجتاحة والآهلة بهذا الجنس السيء تحت لواء الإسلام".

نرى فيه أبناء المسيحيين لا يتعلمون إلا عندما يزمعون القيام بأعمال الكهنوت[١] وأن ما ناله مسلمو الحبشة من هذا التفوق الأدبي على الأهالي المسيحيين، ليفسر لنا إلى حد ما أحرزه الإسلام من تقدم مستمر، وإن كان بطيئًا في خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وإن ما اتصف به رجال الكنيسة الحبشية من انحطاط وجمود، وما شجر بين زعماء الحبشة من منازعات لا حد لها، أفسحت للمؤثرات الإسلامية المجال لتعمل في حرية واطمئنان.

وعندما تحدث مستر بلودن **Plowden** قنصل إنجلترا في بلاد الحبشة من سنة ١٨٤٤ إلى ١٨٦٠م، عن قبائل الحباب وهي ثلاث قبائل تنتمي إلى فرع التيجري **Tigre**، وكانوا يقطنون بين خطي عرض ١٦، ٣٠ ١٧ إلى الشمال الغربي من مصوع، قال إنهم اعتنقوا الإسلام «في خلال المائة عام الأخيرة، وكلهم ما عدا الجيل الأخير، يحملون أسماء مسيحية. وقد غيروا ديانتهم لما كان للمسلمين الذين كانوا يتجرون معهم من تأثير متصل، وبما صنعه زعماء الحبشة من تركهم البلاد تدريجيا، وقد أصبح الآن شاملا، لفرط انشغالهم مع جيرانهم في حروب لا تنقطع».

ومن أساطيرهم أن أحد زعمائهم ويدعى جاوج **Jawej** قد رفض المسيحية ودخل في الإسلام، اعتقادًا منه أن هذا الدين يورث حسن الحظ وطول العمر، قال حينئذ لقسيسه: وحطم التابوت قطعة قطعة[٢]، فأجاب القسيس: «إني لا أجرؤ على أن أحطم تابوت مريم قطعة قطعة» عند ذلك أمسك لجاوج التابوت بيديه ثم أهوى عليه بفأسه، فهشمه قطعا، وهنا اعتنق القسيس الإسلام، وأصبح كل ذراريهم شيوخا للقبيلة حتى الوقت الحاضر[٣].

وفي هذه الفترة ذاتها تحولت جموع أخرى من أهالي المقاطعات الشمالية في هذه البلاد إلى الإسلام بطريقة مماثلة، ذلك أن القساوسة كانوا قد هجروا هذه المقاطعات وتعرضت الكنائس للخراب، ولم يكن ذلك فيما يظهر إلا نتيجة الإهمال، إذ يقال أن

---

(١) **Rüppell, vol.i, pp.328, 366.**

(٢) **Plowden, P.15.**

(٣) أي تابوت العهد.

المسلمين في تلك البلاد لايعرفون التعصب في أية صورة من صوره، ولا يضمرون للمسيحية أي نوع من العداء[١].

وهناك شهادة مماثلة أدلى بها رحالون آخرون[٢] تؤيد تقدم الإسلام في أوائل القرن التاسع عشر الميلادي، فقد وجد هؤلاء الرحالون جموعا من المسيحيين في تحول مستمر إلى هذا الدين. وقد عطف على المسلمين بوجه خاص (رأس علي) أحد جوانب الملك في بلاد الحبشة، وكانت له السيادة الفعلية على هذه البلاد قبل أن يجلس الملك تيودور على عرشه سنة ١٨٥٣. ومع أن هذا النائب نفسه كان مسيحيا، فقد قسم مناصب الدولة، بل ما غنمه من الكنائس بين أتباع الدين الإسلامي. وفي أثناء حكمه اعتنق دين النبي نصف الأهالي الولايات الوسطى من بلاد الحبشة[٣].

وقد مد هذا الدين الآن جذورا بعيدة الغور في أرض الحبشة، حتى أن أتباعه ملكوا ناصية التجارة كلها، كما ملكوا المهن الصغيرة بأنواعها في البلاد، ونعموا بأملاك واسعة، وسيطروا على مدن كبيرة وأسواق مهمة، وظفروا بنفوذ قوي على جمهرة الشعب، وقد قدر مبشر مسيحي، عاش في هذه البلاد خمسا وثلاثين سنة، نجاح دعاة المسلمين وحماستهم تقديرا عظيما بقوله: لو أن هناك أجد جراني آخر ينهض وينشر راية النبي، لصارت بلاد الحبشة مسلمة بأسرها[٤].

وقد أدى الشقاق الذي وقع بين الحبشة والحكومة المصرية (التي اشتبكت معها في حرب من سنة ١٨٧٥ إلى ١٨٨٢) إلى إحداث شعور استيناء في وجه الإسلام، فقد انعكست كراهيتهم للعدو الأجنبي المسلم على إخوانهم في الدين الذي أقاموا بين ظهرانيهم، وفي سنة ١٨٧٨ عقد الملك جون مجمعا يضم رجال الكنيسة الحبشية، ونادوا به حكما أعلى المسائل الدينية، وقرروا وجوب الانتصار على دين واحد في كافة أنحاء

---

(١) Littmann, PP. 69-70.

(٢) Plowden, PP.51-2 Isenberg.p.36.

(٣) Massaja, vo0l. xi. P.125. Reclus, vol. x247.

(٤) Massaja, vol. xi.P.124

المملكة، وأعطى المسيحيون على اختلاف طوائفهم ما عدا اليعاقبة، مهلة عامين ليصبحوا فيها متفقين في الرأي مع كنيسة البلاد، وألزم المسلمون بالتسليم في خلال ثلاث سنين، والوثنيون في خلال خمس، وأذاع الملك مرسوما بعد ذلك بأيام قليلة، أوضح فيه أن مهلة السنوات الثلاث التي منحها المسلمون كانت قليلة الأهمية.

وذلك أنه لم يقتصر على إلزامهم ببناء كنائس مسيحية متى كانوا في حاجة إليها، ودفع العشور للقساوسة الذين يقيمون في مقاطعاتهم الخاصة، بل أنذر كل الموظفين المسلمين بأن يختاروا في خلال ثلاثة أشهر بين قبول التعميد أو التخلي عن مناصبهم. وكان مثل هذا التنصير الإجباري الذي لا يشتمل إلا على طقوس العماد ودفع العشور عديم الأثر بطبيعة الحال. ففي الوقت الذي تظاهر المسلمون فيه بالقبول كانوا في الخفاء يؤكدون ولاءهم لدينهم القديم. وقد شاهد مساجا بعضا من هؤلاء يخرجون من الكنيسة التي عمدوا فيها قاصدين المسجد، يلتسمون فيه رجلا مباركا من رجال دينهم، يمحو عنهم ما لحقهم من التعميد الذي أرغموا عليه[١].

وإن ما جعل كل هذا التنصير أضعف أثرا وأقل قيمة هو أنه كان مقصورا على الرجال دون النساء، ذلك أنه لما كان المرسوم الملكي لم يشر إلى النساء في قليل ولا كثير، فإنهن لم يتعرض لسوء محال، وهي حالة ربما دلت على معنى كبير فيما سيحدث بعد في مستقبل الإسلام في بلاد الحبشة، كما أن مساجا يقيم البرهان الساطع على ما قام به النساء المسلمات من دور خطير في سبيل نشر دينهن في هذه البلاد[٢]، فيقول إن الملك جون أرغم حول سنة ١٨٨٠ ما يقرب من خمسين ألفا من المسلمين على التعميد، كما أجبر عشرين ألفا من أفراد إحدى القبائل الوثنية ونصف مليون من قبائل الجلا[٣].

ولكن لما كان تنصيرهم لم يتجاوز التعميد ودفع العشور، فلا عجب إذا عرفنا أن

---

(١) Massaja, vol. xi. PP.77-8

(٢) Id.PP.124 .125.

(٣) Oppel, P. 307, Reclus, tome, x. P. 247.

هذه الوسائل التي تقوم على العنف والإرهاب، لم تؤد إلى زيادة العداوة والبغضاء في نفوس الأحباش المسلمين والوثنيين جميعا نحو الدين المسيحي[١]. وقد اغتنم ملك ولاية كافا Kafa الصغيرة (التي كانت تعترف بالسيادة الحبشية بصفة دائمة تقريبا)– واسمه Sawo- Techno– فرصة ارتباك الملك جون الذي هدده الإيطاليون وأتباع المهدي في وقت واحد، فأعلن (ملك كافا) استقلاله واعتنق الإسلام ليكون بذلك أقوى نفوذا فيما يعمل. وقد أفلح في مقاومة كل هجوم حتى سنة ١٨٩٧، حين غزيت ولايته مرة أخرى، وأسره الإمبراطور منليك ملك شوا Shoa السابق، الذي وطد سلطانه في جميع أنحاء بلاد الحبشة بعد وفاة الملك جون سنة ١٨٨٩، وعاد الدين المسيحي دينا رسميا في ولاية كافا بأسرها، وتجددت العبادة المسيحية في الكنائس التي تركت لم تمس بسوء، وكان بعضها قد أغلق أو تحول إلى مساجد[٢].

ولكن هذه التدابير الصارمة التي اتخذت لصالح المسيحية قد أخفقت في وقت نمو النفوذ الإسلامي في خلال القرن التاسع عشر، فقد أسلمت قبائل بأجمعها، كانت يوما ما تدين بالمسيحية، ولا تزال تحمل أسماء مسيحية، مثل قبائل تاكليه Taklès (أي نبات يسوع)، وهبتيه Hebtès (عطية يسوع)، وتيماريام Temaryam (عطية مريم)، وكانت قبيلتا منساع Mänsa مسيحية بأسرها حول منتصف القرن التاسع عشر، ثم دان السواد الأعظم منهما بالإسلام في مستهل القرن العشرين، ويلوح أن الجهود التي قام بها دعاة المسلمين الذين أدخلوهم في الإسلام كانت ممهدة السبيل بسبب جهل رجال الكنيسة. كذلك قامت حركة مماثلة لنشر الإسلام، ظلت مستمرة بعض الوقت بين قبائل أخرى[٣].

ولنعد الآن إلى تاريخ إفريقية في القرن السابع الميلادي عندما كان العرب يسيرون

---

(١) Massaja, vol. xi.PP.79, 81.

(٢) Morié, vol. ii.P.449.

(٣) Littmann, PP. 68- 70. K. Cederquist: Islam and Christianity in Abysinia, P. 154 (The Moslem World, vol. ii)

بفتوحاتهم قدما من الشرق إلى الغرب على طول الساحل الشمالي، وقد كان فتح مصر أمرًا ميسورا بالنسبة إلى غيره من الفتوح، حيث قامت جموع غفيرة من السكان بمساعدة العرب في وضع حد للحكم البيزنطي، ولا مجال للمقارنة بينه وبين تلك المعارك الدامية، والمقاومة المتوالية الطويلة الأمد التي حالت دون التوغل في تقدمهم في فتح إفريقية، وقد مضى نصف قرن قبل أن يظفر العرب بالسيادة التامة على الساحل الشمالي الذي يمتد من مصر إلى المحيط الأطلسي. ولم تكد فرجاجنة تسقط سنة ٦٩٨م حتى زال الحكم الروماني من إفريقية زوالا رجعة له، كما أن إخضاع البربر قد مكن العرب من أن يصبحوا سادة هذه البلاد.

وليس من غرضنا في هذا الكتاب أن نتعرض لتفاصيل هذه الغزوات، وإنما يحسن بنا أن نحاول البحث عن الطريقة التي انتشر بها الإسلام بين أهالي هذه البلاد المسيحيين. ويؤسفنا أن المادة التاريخية التي تعيننا على تحقيق هذا الغرض قليلة غير وافية، فماذا كان مصير تلك الكنيسة الإفريقية الكبرى التي كانت قد أمدت العالم المسيحي بأمثال هؤلاء القديسين ورجال الدين؟.. لقد زالت كنيسة **Tertullian** وكنيسة القديس سابيريان **Cyprian** وكنيسة القديس أوجوسطين **Augustine**، التي كانت قد خرجت ظافرة من أمثال هذه الاضطهادات الكثيرة، والتي ناضلت في قوة وعنف عن قضية الأرثوذكسية المسيحية كل ذلك، فيما يظهر، قد تلاشى كما يتلاشى الضباب.

ولما لم يكن ثمة أخبار محدودة واضحة، تعود بعض الباحثين أن ينسبوا اختفاء المسيحيين من أهالي تلك البلاد إلى اضطهاد الفاتحين المسلمين الذي أملته عليهم روح التعصب الديني وإكراههم على الدخول في الإسلام. ولكن هناك اعتبارات شتى تدفع ما استقر عليه الرأي في هذه المسألة الشائكة، أولها عدم وجود الدليل البين الذي يؤيد مثل هذا الرأي، لقد كانت هناك المذابح وأعمال التدمير، وكل ما اقترن بحرب دامية طويلة الأمد، وكانت من الكثرة بحيث تثير الرعب والفزع، أما ما يتعلق باضطهاد ديني حدث فعلا فإن المؤرخين لم يذكروا عنه إلا شيئًا قليلا. وإن بقاء الكنيسة الوطنية بعد الفتح العربي أكثر من ثمانية قرون، لشاهد على روح التسامح التي استطاعت وحدها أن تجعل

مثل هذا البقاء أمرًا ممكنا.

فمن اللازم أن نلتمس الأسباب التي مهدت السبيل إلى تدهور المسيحية في شمال إفريقية، في شيء آخر أكثر مما نلتمسها في تعصب الولاة المسلمين. ولكن قبل أن نحاول بسط هذه الأسباب، يجدر بنا أن نتبين كيف أن عدد الأهالي المسيحيين في نهاية القرن السابع الميلادي كان لابد أن يكون قليلا جدا، وهذه حالة تجعل استمرار بقائهم في ظل الحكم الإسلامي أقوى دلالة على انعدام وسائل العنف والإكراه في التحول إلى الإسلام. كما أن هذه الحالة تجعل مثل هذا الزعم واهيا لا ينال شيئًا يذكر من القبول بالنسبة إلى ما كانت تكون عليه الحال لو أن العرب وجدوا هناك كنيسة عظيمة مزدهرة، عندما أخذوا في فتح إفريقية الشمالية.

وإن الولايات الرومانية في إفريقية التي كان من الأهالي المسيحيون محصورين فيها لم تمتد قط بعيدا إلى الجنوب؛ فإن الصحراء الكبرى تقف حاجزًا منيعا في هذا الاتجاه، حتى إن اتساع الساحل لا يتجاوز ثمانين أو مائة ميل إلا في القليل النادر[١]. ومع أنه كان هناك قبيل غزو الوندال عدد كبير من الأسقفيات، قد يبلغ الخمسمائة، لا يجوز أن يكون هذا العدد مقياسا لعدد المؤمنين من المسيحيين، نظرا لما جرت عليه العادة التي كانت متبعة في الكنيسة الإفريقية من تعيين أساقفة في معظم المدن الصغيرة، والإكثار من تعيينهم على أغلب القرى التي لا شأن لها[٢]. ثم إننا لا نشك فيما إذا كانت المسيحية قد امتدت إطلاقا بين قبائل البربر[٣] إلى المناطق الداخلية، وعندما انحلت قوة الدولة الرومانية في القرن الخامس الميلادي، احتشدت قبائل مختلفة، تنتمي إلى ذلك الجنس العظيم، وهم الذين يعرفون عند الرومان بأسماء البربر Moors وأهالي إقليم الزاب (Numidians) والليبيين Libyans إلخ.. احتشدت في جماعات كثيفة، وسارت من الجنوب تعبث في الأرض فسادا، وتخرب المدن الغنية التي تقع على الساحل. هؤلاء الغزاة كانوا وثنيين من

---

(١) Gibbon, vo0l. i. p.161.

(٢) Id. Vol. ii. P.212.

(٣) c.O. Castiglinio: Reaches sur lles Berbebres atlantiques, PP. 96-7 (Milan, 1826).

غير شك؛ فهؤلاء الليبيون الذين ورثوا سينيسيوس القوريناني Synesius of Cyrene ما قاموا به من أعمال التدمير والتخريب رثاء رقيقا شجيا، قد نهبوا الكنائس، وأحرقوها ونقلوا الآنية المقدسة لاستخدامها في عباداتهم الوثنية الخاصة[١].

ولم تفق ولاية برقة Cyrenaica هذه أبدا ممن قاموا به من أعمال التدمير، والراجح أن المسيحية في هذه الولاية كادت تزول في زمن الغزو الإسلامي وأن زعيم البربر في مقاطعة طرابلس Tripolis الذي كان في حرب مع ثورسمند ملك الوندال (٤٩٦–٥٢٤م) لم يحترم إلا الكنائس الأرثوذكسية ورجالها الذين كانوا يلقون سوء المعاملة من الوندال، هذا الزعيم قد جهر بدينه الوثني حين قال: «لست أعرف ما يكن له المسيحيون، ولكنه إذا كان قويا كما يصورونه، فإنه سيثأر من هؤلاء الذين يحقرون من شأنه، ويخلص هؤلاء الذين يمجدونه»[٢]. وهناك نوع من الاحتمال أن الكثرة المطلقة من بدو مرطانية Maurtania كانوا كذلك يدينون بالوثنية.

على أنه مهما يكن اتساع الكنيسة المسيحية فقد تلفت من اضطهادات الوندال ضربة لم تفق منها أبدا فقد ظل الوندال الآربون قرابة قرن من الزمان، يضطهدون الأرثوذكس اضطهادا عنيفا لا هوادة فيه، فشردوا أساقفهم، وحرموا الجهر بإقامة شعائرهم الدينية، وقسوا في تعذيب هؤلاء الذين أبوا أن يدخلوا في ديانة من فتحوا بلادهم[٣]. فلما سحق بليزاريوس Belisaruis قوة الوندال سنة ٥٣٤م، وأعاد شمال إفريقية إلى الدولة الرومانية، لم يلتق في مجمع قرطاجنة[٤] إلا ٢١٧ أسقفا لاستئناف إدارة الكنيسة المسيحية، وبعد أن تعرضوا لاضطهاد مرير طويل الأمد، استسلموا له مكرهين، لم يكن بد من أن ينقص عداد المخلصين للدين نقصا كبيرا، وفي خلال القرن الذي انقضى قبل قدوم المسلمين، حدثت غارات قام لها البرابرة من قبائل المغرب الذين قطعوا

---

(١) Synesii Catastasis (Migne: part. Gr., tom, Ixvi. P. 1569.

(٢) Neander (2) P.320

(٣) Gibbon, vol. iv. Pp.331-3.

(٤) Id. Vol. v.P.115.

الطريق على الرومان في المدن وغيرها من المراكز الآهلة بالسكان، واحتفظوا لأنفسهم بالجبال والصحراء والبلاد المكشوفة[١]. فإن انتشار الفوضى وفساد الإدارة الحكومية فضلا عن تفشي الأوبئة الفتاكة التي تميز بها النصف الثاني من القرن السادس –كل هذه الأمور تضافرت على استمرار أعمال التخريب. وقد قيل إن الحروب وحكومة الإمبراطور جستنيان قد أفنت خمسة ملايين من الإفريقين، وهجر المواطنون الذين كانوا أيسر حالا بلادا كانت فيها التجارة والزراعة من قبل مزدهرة أيما ازدهارا، ولكنها أصبحت الآن خرابا لا سبيل إلى علاجه. «وهكذا تم خراب إفريقية، حتى إن الغريب كان يطوف في كثير من أنحائها، أياما كاملة دون أن يصادف وجه صديق او عدو، زالت أمة الوندال، وكان قد بلغ عدد أهليها من قبل مائة وستين ألفا من المحاربين، عدا الأطفال والنساء والعبيد، وكانت تزداد جموعهم زيادة لا حد لها، بانضمام عدد من العشائر البربرية التي انقرضت في إحدى الحروب الطاحنة الدامية، كذلك حل الدمار نفسه بالرومان وحلفائهم الذين أهلكهم المناخ والمنازعات المتبادلة وثورة البرابرة»[٢].

وحدث قيل أن يتقدم العرب الظافرون من مصر لإخضاع الولاية الغربية بعام أي في سنة ٦٤٦م، أن الكنيسة الإفريقية التي ناضلت كثيرًا في سبيل تطهير العقيدة المسيحية، قد أثارها إلى أبعد حد ما قام من صراع ضد المذهب القائل بأن للمسيح مشيئة واحدة **Monetheletism** ولكن عندما قام أساقفة الولايات الدينية الأربع في أبرشية قرطاجنة: وهي مرطانية **Maurtania**، وإقليم الزاب **Numidia** والولاية الداخلية **Byzacena** وولاية إفريقية القنصلية[*] **Africa Proconsularis**، وعقدوا مجامع لإدانة أنصار هذا المذهب، وكتبوا خطابات محفلية إلى كا من الإمبراطور والبابا، لم يكن هناك إلا ثمانية وستون أسقفا اجتمعوا في قرطاجنة ليمثلوا هذه الولايات الأخيرة، واثنان وأربعون

---

(١) التيجاني ص٢١ **Gibbon vol, v.p. 122.**

Gibbon, vol. v.P.214. (٢)

(*) وكانت هذه الولاية تضم ولاية إفريقية الأصيلة والجزء الشرقي من تونس الحالية الذي كان يسمى روجيتا نيا **Zeugitania** والمنطقة الداخلية منها التي تمتد ةحتى فزان المسماة بيزاسينا –الدكتور حسين مؤنس: فتح العرب المغرب (القاهرة ١٩٤٧) ص٢.

يمثلون الولاية الداخلية. أما عدد الذين مثلوا الأسقفيتين الأخيرتين، فلم يذكر عنهم شيء غير أن الأهالي المسيحيين كانوا من غير شك قد عانوا في هاتين الأسقفيتين أشد كثيرا مما كانت تعانيه الأسقفيتان الأخريان اللتان كانتا أقرب إلى مقر الحكومة[١]. وليس من المحتمل أن يتخلف أسقف من الأساقفة عن الحضور في مناسبة أثارت شعورا كبيرا، في الوقت الذي تضافرت فيه الحماسة في سبيل العقيدة المسيحية والخصومة السياسية للبلاط البيزنطي على تشجيع هذه الحركة، وفي الوقت الذي أخذت فيه إفريقية على عاتقها نصيبا كبيرا من إثارة المعارضة التي أدت إلى انعقاد مجمع لاتيران lateran الأعظم سنة ٦٤٨م.

ومن المؤكد أن النقص في عدد الأساقفة يدل على نقص كبير في عدد الأهالي المسيحيين. وإذا نظرنا إلى الأسباب المتعددة التي أدت إلى تأخر الأهالي، فلا ينبغي كذلك أن نجعل أهمية كبيرة جدا لعدد هؤلاء، لأن من الممكن أن يظل أي كرسي من كراسي الأسقفية مشغولا زمنا طويلا بعد أن يحمل ذكر الأسقفية وتصبح قليلة الخطر.

ومن الاعتبارات التي ذكرناها من قبل، يمكن أن نستنتج في شيء من التأكيد أن الأهالي المسيحيين في وقت الغزو الإسلامي لم يكن عددهم كبيرا بحال من الأحوال. وقد ظل عدد الأهالي المسيحيين في خلال الخمسين عاما التي انقضت قبل أن يحرز العرب انتصارهم، ينقص شيئًا فشيئًا من جراء ما أصابهم من أعمال التخريب في هذا النزاع الطويل، فقد نهبت مدينة طرابلس بعد أن قاست الحصار ستة أشهر، وقتل جانب من السكان بحد السيف، وسيق الآخرون أسرى إلى مصر وبلاد العرب[٢] ودافع أمير روماني عن مدينة أخرى كانت تناخم الصحراء النوميدية، ومعه حامية كبيرة تحملت بشجاعة حصارا دام عاما كاملا؛ ولما أخذت المدينة عنوة آخر الأمر أعدم جميع الرجال بالسيف،

---

(١) Neander. (1) vol. pp. 254- 5. J.E.T. Wiltsch: Hand-book of the geography and statistics o0f the Church, vol. I, PP. 433-4 (London, 1859) J. Bournichon: L'Invasion musulman en Afrique, PP. 32-3 (Tours, 1890).

(٢) Leo Africanus (Ramusio, tom, i. P. 70, D)

ووقع النساء والأطفال في الأسر[١].

وقد قيل إن عدد أمثال هؤلاء الأسرى بلغ أكثر من مئات الآلاف[٢] كما فر كثير من المسيحيين[٣]، بعضهم إلى إيطاليا وإسبانيا[٤]، وآخرون يلوح أنهم قد طوفوا في الآفاق حتى بلغوا ألمانيا، نستدل على ذلك مما كتبه جريجوري الثاني Gregory في خطاب أرسله إلى أسقفية القديس بونيفاس St. Boniface[٥]. وفي الواقع إن كثيرًا من المدن الرومانية الكبرى قد أخليت من سكانها إخلاء تاما، وظلت خاوية على عروشها وقتا طويلا وتركت لتصبح إطلالة بالية[٦]، على حين اختار الفاتحون كما حدث في أحوال كثيرة، مواقع جديدة تماما لتأسيس مدنهم المهمة[٧].

أما البقايا المبعثرة للكنيسة المسيحية التي كانت مزدهرة من قبل، والتي كانت لا تزال باقية في إفريقية في نهاية القرن السابع، فمن الصعب أن نزعم أن الاضطهاد هو المسئول عن فنائها النهائي، إذا واجهنا الحقيقة القائلة بأن آثار طائفة مسيحية إفريقية كانت قائمة حتى في عصر متأخر يرجع إلى القرن السادس عشر. ومن الحق ما يقال أن إدريس مؤسس الأسرة الحاكمة في مراكش، وهي التي نسبت إليه حملت اسمه، قد أرغم النصارى واليهود على الدخول في الإسلام في سنة ٧٨٩م، عندما شرع في تأسيس مملكة لنفسه بحد السيف[٨]. على أن هذه الحادثة، لم يكن لها نظير في تاريخ الكنيسة الوطنية في

---

(١) «مدينة ديسن Deusen قديمة جدا، بناها الرومان على حدود مملكة Buggia وصحراء نوميديا» (Id, P. 75. F)

(٢) Pavy, vol, i.P.iv

(٣) «وجميع الذين لم يتحولوا إلى الإسلام، أو الذين تمسكوا بعقيدتهم وأبوا أن يلتزموا دفع ضريبة الرأس، قد اضطروا إلى الفرار أمام الجيوش الإسلامية» (التيجاني ص٢٠١).

(٤) Leo Africanus (Ramusion, tom, i.P.7).

(٥) كان بونيفاس لا يرحب مطلقا بالإفريقيين الذين أقبلوا من كل صوب على نظم الكنيسة، لأنه قد ثبت أن بعضهم كان من أصحاب ماني، وبعضهم الآخر كان قد عمد أكثر من مرة.

Epist, iv.0 (Migne: Patr. Lat., tom, Ixxxix, P.502)

(٦) Leo Africanus (Ramusio, PP. 65, 66, 68, 69, 76).

(٧) تأسست القيروان سنة ٥٠ هـ، وفاس سنة ١٨٥هـ، والمهدية سنة ٣٠٣هـ، ومسيلة سنة ٣١٥هـ، ومراكش سنة ٤٢٤هـ، (أبو الفدا ج٢، ص١٩٨، ١٨٦، ٢٠٠، ١٩١، ١٨٧).

(٨) ابن أبي زرع ص١٦.

إفريقية الشمالية[١].

وإن انحلال الكنيسة في بطء شديد لدليل على التسامح الذي لا بد أن تكون قد عوملت به هذه الكنيسة. فقد وجد بعد الفتح الإسلامي بثلاثمائة سنة تقريبا ما يقرب من أربعين أسقفية كانت لا تزال باقية هناك[٢]، وفي سنة ١٠٥٣م حزن البابا ليو التاسع على أنه لم يمكن أن يوجد إلا خمسة أساقفة يمثلون الكنيسة الإفريقية التي كانت من قبل تتمتع بالشهرة والازدهار[٣]. والأرجح أن سبب ذلك راجع إلى ما أحدثه الجماعات العربية من مجازر بشرية وتدمير فظيع، تلك الجماعات التي تدفقت على هذه البلاد قبل ذلك ببضع سنوات، وملأوا البلاد بالفوضى والمنازعات التي لم تنقطع[٤].

وفي سنة ١٠٧٦م عجزت الكنيسة الإفريقية عن إعداد ثلاثة أساقفة قضت بهم الحاجة لرسم شخص كان يرغب في منصب الأسقفية، وذلك طبقا لما تقتضيه الشريعة الدينية، وقد وجد البابا جريجوري السابع من الضروري أن يرسم أسقفين ليعملا مساعدين لرئيس أساقفة قرطاجنة؛ ولكن عدد المسيحيين كان لا يزال من الضخامة بحيث كان

---

(١) ولدينا حالة مشكوك في صحتها تنسب إلى عبد المؤمن الذي فتح تونس سنة ١١٥٩م، أنه أرغم بعض الناس على الدخول في الإسلام بالقوة. انظر Des Mas Latrie (2), P. 77-8 «وهناك مؤلفان عربيان: أحدهما ابن الأثير الذي كان معاصرا، إلا أنه كان يقيم في دمشق في وسط النشوة الدينية التي أثارتها انتصارات صلاح الدين، والآخر التيجاني الذي زار إفريقية في القرن الرابع عشر– هذان المؤلفان كتبا أن السلطان صاحب تونس أرغم المسيحيين واليهود القاطنين في هذه المدينة على الدخول في الإسلام، وأن العصاة قتلوا بلا رحمة. ونحن نشك في حقيقة وقوع هذه التدابير كلها، إذ لو كان الأمر بالقتل قد صدر من السلطان في نشوة النصر لإشباع بعض الرغبات الوقتية، لكان من الواجب أن يعدل أو أن يرفض، مادام هذا الأمر يتنافى مع مبدأ الحرية الدينية الذي كان محترما من كل أمراء المغاربة حتى ذلك الحين، أما الشيء المحقق فهو أن المسيحيين واليهود لم يظهروا متأخرين في تونس وأننا نرى المسيحيين، قبل نهاية (عهد) عبد المؤمن قد استوطنوها، ونعموا كما كانوا في العهود السابقة، بالحرية في مزاولة تجارتهم وإقامتهم شعائرهم الدينية... ويقول مؤلف عربي قديم، إنه اخترق بلاد الزاب وإفريقية، مؤيدا بالله في خطواته، مفشوليا على البلاد والمدن، معطيا الأمان لما يطلبونه، وقائلا كل من يسعى أمره؛ وتؤيد هذه الكلمات الأخيرة شعورنا إزاء ما سلكه نحو المسيحيين الذي قبلوا الحكم بالقتل الذي قضت به الأقدار.

(٢) De Mas Latrie (2), pp. 27-8.

(٣) S. Leonis IX. Papae Epist Ixxxiii (Migne: Patr LAt., tom. cxIlll P.728.

هذه الرسالة تتناول موضوع نزاع على الأسبقية بين أساقفة جمي gummi وقرطاجنة، ومن المحتمل جدا أن تكون حالة الفوضى التي سادت إفريقية في ذلك الحين، قد جعلت أساقفة إفريقية لا يعرفون شيئًا من الأسقفيات الأخرى، فضلا عن أسقفياتهم أنفسهم تلك التي كانت ملاصقة لها، ومن ثم نرى الأخبار التي استقاها البابا قد صورت عدد الأساقفة أقل مما هو عليه في حقيقة الأمر.

(٤) A Müller, vo0l. ii. Pp.628-9.

يتطلب إيجاد أساقفة جدد ليخففوا من عبء العمل الذي كان ثقيلا على هؤلاء الأساقفة الثلاثة، حتى إنهم لم يستطيعوا القيام به دون معونة أو مساعدة[١]. وفي خلال القرنين التاليين، كانت حالة الكنيسة تزيد ضعفا على ضعف. وفي سنة ١٢٤٦ كان أسقف مراكش هو الزعيم الروحي الوحيد الذي كان يشرف على البقية الباقية من الكنيسة القومية[٢].

وكانت آثار ما تبقى من المسيحية حتى هذه الفترة ذاتها، لا تزال قائمة بين قبائل بلاد الجزائر[٣] (*). وكانت هذه القبائل قد أحاطت في زمن مبكر ببعض معلومات طفيفة عن مبادئ الإسلام، ولكن هذه الدين الجديد لم يسيطر على نفوسهم إلا بمقدار يسير جدا، ثم امحت من أذهانهم بمرور الزمن حتى تلك المعارف الضئيلة التي تعلموها بادئ الأمر، إلى حد أنهم نسوا كيفية الصلاة في الإسلام. ولما كانوا محصورين في بقاعهم الجبلية المنيعة، غيورين على استقلالهم، فقد نجحوا في مقاومة تسرب العنصر العربي إلى بيئتهم، ومن هنا قامت في سبيل تحويلهم إلى الإسلام صعاب جمة.

وقد قام سكان دير كان تابعا لطائفة القادرية، وهو ساقية الحمراء، ببعض محاولات غير ناجحة كانت ترمي إلى نشر الدعوة بينهم، ولكن لم ينل شرف النفاذ إليهم ودعوتهم إلى الدين الإسلامي إلا عدد من بربر الأندلس طردوا من إسبانيا بعد سقوط غرناطة في سنة ١٤٩٢. وكانوا قد احتموا في هذا الدير، وتوسم فيهم «الشيخ» أنهم أليق من يضطلع بتلك المهمة الشاقة التي أعيت جهوده تلاميذ من قبل إعياء تاما. وقبل أن يبعث بهم في تلك المهمة الدينية خاطبهم قائلا: «إنه لواجب قد ألقي على عاتقنا أن نحمل

---

(١) S. Gregori VII. Eipstola xix. (Liber tertius). (Migne: part, lat, tom, cxIvii P. 449).

(٢) De Mas latrie, P.226 وإن عددا من المسيحين الإسبان، الذين كان أجدادهم قد أبعدوا إلى مراكش سنة ١١٢٢ كانوا قد أقاموا هناك في وقت متأخر، يرجع إلى سنة ١٣٨٦م، حين سمح لهم بالعودة إلى شبيلية بفضل ما أسداه إليهم سلطان مراكش من حسن الصنيع في ذلك الحين (Whishaw, PP.31-4).

(٣) C. Trumelet: Les Saints de l'Islam, P. xxxiii (Paris, 1881).

(*) ويطلق الجغرافيون الأوروبيون لفظ كابيليا Kabylia على البلاد الجبلية من ساحل الجزائر، والكلمة مشتقة من (قبيلة) اللفظة العربية. (راجع Encyc of Islam art, Kabylia)

مشعل الإسلام إلى تلك الأصقاع التي ضيعت ما ورثته من بركات هذا الدين، ذلك أن هذه القبائل البائسة لم تزود مطلقا بالمدارس، وليس لديهم شيخ يعلم أبناءهم مبادئ الأخلاق وفضائل الإسلام. لهذا فهم يعيشون كالحيوان الأعجم، لا يعرفون إلها ولا دينا. ولكي ننزع عنهم هذه الشقاوات، عقدت النية على أن أناشد غيرتكم الدينية وهدايتكم لا تدعو بعد اليوم سكان هذه الجبال غارقين في حالة يرثى لها من الجهل بحقائق ديننا العظمى؛ انطلقوا وانفخوا في نيران دينهم الزائلة، وأعيدوا إنارة جذوتها الخامدة، طهروهم مما قد يظل عالقا بهم من آثام من أثر اعتقادهم القديم في النصرانية. فطوبهم إلى أن الله لا يقبل الرجس في دين سيدنا مُحَمَّد ﷺ، كما لا يقبله في النصرانية[1]. إنني لا أخفي عنكم أن مهمتكم محفوفة بالصعاب، ولكن ما اتصفتم به من غيرة لا تقاوم، وحماسة من أجل دينكم، سيمكنكم بعون الله من تذليل الصعاب، انطلقوا يا أبنائي وأعيدوا إلى الله ورسوله مرة أخرى هذا الشعب الشقي المنغمر في حمأة الجهالة والكفر. انطلقوا يا أبنائي واحملوا رسالة الخلاص أيدكم الله ووفقكم».

وانطلق الدعاة جماعات، كل جماعة تتألف من خمسة أو ستة، إلى وجهات مختلفة في وقت لواحد. وذهبوا في أسمال بالية، كل واحد عكازه في يده، واختاروا أشد أماكن الجبال وحشة، وأقلها عمرانا، وبنوا لهم صوامع في الكهوف والأخاديد، وسرعان ما أثار تقشفهم وطول تعبدهم فضول القبائل الذين أخذوا بعد وقت وجيز يبادلونهم الصداقة والود. وتمكن الدعاة شيئًا فشيئًا من الظفر بما أرادوا عن طريق ما عرفوه من الطب والصناعات الآلية وبعض مزايا أخرى من الحضارة، وأصبحت كل صومعة مركزًا من مراكز التعليم الإسلامي، واجتمع حولهم طلاب للعلم، وقد انجذبوا إلى تعاليم هؤلاء الذين قدموا إليهم عهد قريب، وأصبح هؤلاء الطلاب بعد فترة من الزمن دعاة إلى الإسلام بين قومهم، حتى استطاعوا أن ينشروا دينهم في كافة أنحاء البلاد التي تسكنها القبائل والقرى

---

(١) قارن هذا بالمواد التي نشرها المجلس الذي عقد في مدريد سنة ١٥٦٦م، وهو يتعلق بتنصير المسلمين المقيمين في إسبانيا Moriscoes (أي بعد زوال الحكم العربي منها)، وهذا نص إحدى هذه المواد: لا يسمح مطلقا لهم ولا لنسائهم ولا لأي فرد آخر أن يغتسلوا أو يستحموا في منازلهم أو في أي مكان آخر، كما يجب أن تهدم وتخرب حماماتهم كلها». (J. Morgan, vol, ii.P. 256)

التي تقع في صحراء الجزائر[١].

ولا شك أن هذا الحادث سالف الذكر يصور لنا الطريقة التي كان ينفذ بها الإسلام إلى غير هذه الجماعات من القبائل المستقلة في داخل هذه البلاد، الذين كانوا قد تلقوا أية تعاليم مسيحية من قبل، ولكن معلوماتهم عن الدين كانت قد تضاءلت واستحالت إلى شعائر دينية قليلة مبنية على الخرافات[٢] ذلك أنهم لما كانوا منقطعين عن سائر العالم المسيحي، غير مزودين بمعلمين روحانيين، لم يكن لهم من وسائل الاعتقاد الديني الذي يقوم على اليقين ما يمكنهم من مناهضة تعاليم دعاة المسلمين.

ولدينا معلومات أخرى قليلة، يمكن أن تضاف إلى تلك المعلومات المبعثرة التي ذكرناها عن انحلال الكنيسة الإفريقية الشمالية. فهذا رحالة مسلم[٣] عاش في النصف الأول من القرن الرابع عشر، زار بلاد الجريد وهي الولايات التي تقع جنوبي تونس. وهو يخبرنا أن الكنائس المسيحية كانت لا تزال قائمة على عهده، ومع أنها كانت مهدمة ولكن العرب الفاتحين لم يخربوها. واكتفوا ببناء مسجد قبالة كل من هذه الكنائس. ويتحدث ابن خلدون (فيما كتبه حول نهاية القرن الرابع عشر) عن بعض قرى ولاية قسطيلية[٤]، ويسكنها بعض الأهالي المسيحيين الذين كان أسلافهم قد عاشوا هناك منذ الفتح العربي[٥].

وفي نهاية القرن التالي كان لا يزال في مدينة تونس جماعة صغيرة من المسيحيين من

---

(١) C. Trumelet: Les Saints de L'Islam, PP. xxviii. Xxxvi.

(٢) يقول ليو الإفريقي أنه في نهاية القرن الخامس عشر نجد جميع سكان الجبال من أهل الجزائر واليوجا، مع إسلامهم، قد رسموا صليبا أسود اللون على خدودهم، وفي بطون راحاتهم (Ramusio, i.P.61) ونظير ذلك بنو مزاب الذين يحتفظون، حتى اليوم، ببعض طقوس دينية تتعلق بالحرمان والاعتراف (Oppel. P. 299)؛ ويجري بعض القبائل البدوية الصحراء الكبرى بعض طقوس خاصة بنوع من التعميد، ويستخدمون الصليب زينة لبعض أمتعتهم وأسلحتهم (De Mas Latrie (2), P.8)

(٣) التيجاني ص٢٠٣

(٤) وهي تورز الحديثة، في تونس.

(٥) تاريخ الدول الإسلامية بالمغرب، ج١، ص١٤٦ ٠طبعة دي سلان بالجزائر سنة ١٨٤٧).

أهالي هذه البلاد يعيشون في إحدى الضواحي بعضهم عن بعض، منفصلين تمام الانفصال عن تلك البقعة التي أقام فيها التجار المسيحيون الغرباء بعيدين عن كل ظلم أو اضطهاد، فقد كانوا يعملون حراسا للسلطان[١]. ولا شك كانوا هم أنفسهم الذين هنأهم تشارلس الخامس بعد استيلائه على تونس في سنة ١٥٣٥ على ما أظهروه من الثبات على الدين المسيحي[٢].

وكان هذا آخر ما سمعناه عن الكنيسة المسيحية القومية في إفريقية الشمالية، وإن مجرد بقائها مثل هذا الوقت الطويل ليدحض أي زعم بأن تحولهم إلى الإسلام قد قام على القوة والإكراه، حتى ولو لم يكن لدينا الدليل الكافي على روح التسامح التي ظهر بها العرب الحاكمون في ممالك إفريقية الشمالية على اختلافها، فهم الذين استخدموا جنودا مسيحيين[٣]، ومنحوا المسيحيين من التجار والمستوطنين بمقتضى معاهدات متكررة، الحرية في أداء شعائرهم الدينية[٤]، وهم الذين فوض البابوات إليهم العناية بالأهلين من المسيحيين، كما حضوا هؤلاء على خدمة حكامهم المسلمين في إخلاص وولاء[٥].

---

(١) leo Africains (Ramusio, tom. i.P.67).

(٢) Pavy, vol.I .vii.

(٣) De Mas latrie (2) PP. 612-2 266-7 L. del Marmol- Caravajal de L'Afrique. Tome ii. P54. (Paris, 1667).

(٤) de Mas Latrie (2) P.192.

(٥) Innocent IV. Gregory IV. Gregory VII Innocent III,